لحل المسائل الهندسية بمكان السكن والجنس مثلاً؟ ربما يكون صلة أو لا يكون، ولكن وفي جميع الحالات، فإن القضايا الإنسانية هي قضايا مركبة تاريخية وديناميكية وذات علاقات متذبذبة ومتغيرة تتكشف وتتلاشى حسب تتداخل عوامل غير معروفة أو غير قابلة للتوحد أو للعزل.

لقد فك هذا الوعي النمطي صيرورة البحث وقلقه وحيويته، وحوّل المنهجية إلى قطعة مستقيمة تقيس بالمسطرة أشياء خارج ما يسعى إليه البحث أصلاً، كما ضحى بتكامل الظاهرة الإنسانية من أجل إخضاعها للقياس. (هل يعلم الأخوة "الكمّيون" أن أعمق الظواهر الإنسانية تهرب من القياس؟!).

إن هذا الوعي النمطي والملتزم بتنفيذ قواعد النموذج الجاهز يلامس حدود الاستبداد المعرفي عند أصحاب الحكم والقرار ... إن هذه القواعد الصنمية تتخذ طابع القدسية العلمية التي لا يجوز التساؤل حولها أو مساسها، أما الخروج عنها فهو كفرٌ ويعرِّض صاحبه إلى النبذ من عشيرة الباحثين، هؤلاء يعتقدون بموضوعية المعرفة وحياديتها، ولهذا فقد حولوا الإنسان إلى آلة صماء والعلم إلى دراسة للأشياء ... إن تلك اللغة الموضوعية هي التي كبلتنا، وعلى رأي الروائي الروسي تشيخوف فان "الموضوعية هي التي تمنع الناس أن يحيوا" ... يقول كانط في هذا الصدد: "إننا عندما نضع النظم والقوانين لندرس ظاهرة تربوية، فإننا في الحقيقة لا نفسر هذه الظواهر، بل نفسر علاقاتنا مع هذه الظواهر" ... من هنا يبرز السؤال: هل المعنى معطى أصلي وذو وجود موضوعي مغروس بالأشياء أم أن فعل الوعي هو الذي يفضي عليه المعنى؟ هذا المعنى الذي يبلغ أقصاه عندما نقوّس سهم الفكر ... إن أي انتقاص من الدور الذاتي لتفسير الظاهرة الإنسانية، يقابله انتقاص في انحناء خط الفكر وتسطيح في المعنى أو تبهيت في لون أنغام الحياة!

إن للذاتية منطقها، وكما يقول الفيلسوف بيترفينتش إن "معايير هذا المنطق ليست هبة مباشرة، لكنها تنشأ في سياق طرق لعيش أنماط الحياة الاجتماعية ولا تكون مفهومة إلا فيها".

أفكار على الطريق:

عندما تحولت الكلمات إلى أرقام توقفت عن العد، وعندما تحولت المشاعر إلى أعداد بدأت بالسير ... مشيت في طريق العودة إلى المكتبة، والعودة إما تكون نهاية انتظار وإما بداية اعتذار ... فاعتذرت إلى نفسي عما فعلت، وبدأت أمشي في سراديب المكتبة ... أكوام من الباحثين الذين يذهبون للإدلاء بأرقامهم شهادة على دقة نتائجهم (هم أساساً أولئك الذين طردتهم الأرقام بطريقة أو بأخرى) ... أكوام من الأضاحي الفكرية قدمت على مذبح امتلاك الحقيقة ... أكوام من الأبحاث والنتائج التي لا تنجز باستمرار ... أكوام من الطاعة تتكدس في حياتنا بقرار!!

وائل كشك - باحث في مركز القطّان

حكايات في المدرسة

حكاية معلم كان طالباً

فصل من رواية

مشهور البطران

"حوش عبد ربه": مهجع الطفولة الباكرة، ستة عقود من الطين المكلس، وزريبتان، وعدة عرائش، وطابون، تلتف معاً في شبه دائرة محكمة الإغلاق لا يربطها بالعالم إلا بوابة خشبية ذات رتاج ضخم، تنفتح –عند الضرورة– عدة مرات كل يوم لتخرج الأنفس من مستقرها إلى مرازقها.

الأب: رجل صعب وعنيد يعيش على إرث عائلة إقطاعية، ولا يزال يجتر ذكريات المجد القديم، أيام كان يضع ساقاً على ساق في ساحة الميدان وفي يده النبوت آمراً ناهياً، أيام كان يكتري عشرين فلاحاً (بالمونة) في مواسم الذرة والشعير، لا يريد أن يصدق أن تلك الأيام المجيدة أدبرت وصارت تراثاً سيحكى عنه في قادم الأيام، ولا يريد أن يصدق أن هذه الأرض على سعتها لا توفر له الآن ما يوازي أجرة عامل في بلدية القدس. كل الرجال من جيله تركوا الفلاحة والرعي والتحقوا بسوق العمل في إسرائيل، أما هو فبقي على حنينه التاريخي للأرض، إنه يمتاز بقدرة خارقة على الكدح والعرق وكأنه مخلوق من طينة صخرية، ويتمتع باحتياطي وافر من الصبر على المتاعب والإخلاص للفلاحة، فهو لا يكل ولا يمل، يلظم النهارات في تعاقبها وهو يحرث على الحمار، ثم لا يلبث أن ينهض فجر اليوم التالي لتجديد رحلة العناء.

الأم: امرأة منكودة الحظ، يسيطر عليها إحساس دائم بالخذلان والهجر، فهي متهمة بانحدارها من سلالة لا تنجب الذكورة، وإن أنجبتهم فلا يصمدون أمام الحصبة والتيفوئيد، نجا لها من الموت ذكران أحدهما أنا. غير أنها مخصبة في الإناث، لقد أثرت ست إناث يتمتعن بقدرة خارقة على مقاومة الآفات، نجون من موجات الحصبة المتتالية وملأن الحوش بضجيجهن، وللخلاص من عقدة الإثراء الأنثوي، راحت الأم تجاهد ليل نهار لتأكيد شطارتها في الأعمال المنزلية، فهي مشمرة صباح مساء لأعمال الكنس، والطبخ، وحلب المواشي.

العجوزان: جدتي لأبي –الحاجة عائشة– وزبيدة سلفتها، أرملتان، ترملتا في ربيع عمريهما، ولبستا الهلاهيل السوداء، وحكمتا على نفسيهما بالحداد الأبدي، لا يخرجن من الحوش إلا في خميس الموتى وما ندر من مناسبات.

في هذا الحوش المشحون بالخوف والقلق، درجت في مرقى العمر ست سنوات، وأنا كل يوم أقف أمام المرآة لأعاين طولي، وأسأل أمي: متى أذهب إلى المدرسة؟

***

الفاتح من أيلول العام ١٩٧١، صباح طري ولذيذ والقلب مسربل بالأمل، جالس وحدي على ظهر العقد انظر بحنين خالص نحو البناء المدرسي المذهل، بناء أسطوري شامخ يعتلي جبل (الذخرة) يكاد يطاول زرقة السماء، ومن حوله تلتف في خضوع تام دائرة من السقف الطينية الحمراء، تبدو لي من موقعي كأقزام ساجدة في محراب البناء المدرسي العملاق.

السماء صافية وسحابات قطن تسبح في الزرقة الناعمة، أسراب حمام تتهادى في البحر الأزرق الهادئ، عيناي معلقتان على خط الأفق الذي يكاد يلامس سطح البناء المدرسي، أحدث نفسي بفرح غامر، أخيراً وجدتها:

"فقط من فوق المدرسة، بمقدور الإنسان أن يعتلي السماء بسلم من خشب".

صحوت من روعة الاكتشاف الأرخميدي على نهيق حمارنا وهو يغادر بوابة الحوش يقوده أبي بيده، وفي يده الأخرى يزم الفأس والجاروف، نظر إلي وكأنه ينتظر سؤال الصباح المضني، حسنا لن أسأله هذه المرة أين سيذهب، فقد سئمت جوابه المكرور: "بعيد".

ودعته بإشارة من يدي ولسان حالي يقول: "حسنا سوف أذهب اليوم أبعد منك".

الشمس تتلمس خطاها الوئيدة في ساحة الحوش، الأرملتان عائشة وزبيدة تتهيئان لحمام صباح شمسي، لقد خرجن بهلاهيل النوم من أقبيتهن وهن يحككن رؤوسهن، إنها الإشارة لبدء مشوار النميمة الصباحي، بعد قليل ينفلن شعورهن المحناة وتفلين واحدتهن الأخرى تحت شمس أيلول الدافئة على وقع أنغام النميمة، إنهن لا يتركن خبراً إلا وأهلكنه مضغاً دون أن يخفف ذلك من مثابرتهن في سحق ما تطفل على شعرهن من كائنات دونية.

في زاوية قصية من الحوش تجاهد أمي في وضع آخر لمساتها على طابونها المنهك، الذي أنضج عشرين رغيفاً هي زاد الحوش لهذا الصباح.

نفضت هلاهيلها من عوالق الطابون، وشطفت وجهها من ماء الزير، ثم دخلت العقد، وما هي إلا لحظات حتى خرجت تزدان بثوبها المشجر بعروق الزيتون ونادت بصوتها الرخيم:

– يلا يا ولد.. أنت وين.

ضحكت إحدى الأرملتين ضحكتها الساخرة المعتادة وقالت:

– بتنادي على منصب الظحى؟.. يظهو مطنب فوق العقد.

قالت الثانية بذات اللهجة الماكرة:

– كود يرد القدس من ورى قرايته.

أمي لا تعجبها تعليقاتهن اللاذعة فتلوذ بصوتها العالي المتجاهل:

– يلى يا ولد أنت مطول؟

نزلت الدرج أتحسس رأسي، حليق وأملس وفق التعليمات، سحبتني من يدي لصق الدرج الظليل حيث زير الماء المركون، شطفت رأسي بطاسة من الماء البارد، وألبستني بذلة الخاكي الرمادية، وعلقت على ظهري " خريطة " تشبه مزودة الرعاة.

قادتني وخرجنا نحو المدرسة، ومن فرط سروري رحت أقفز محاولاً الانفلات من قبضتها، فحذرتني أن أوسخ بذلتي، وتلت علي ديباجة طويلة من التحذيرات والوصايا، لكن عقلي مشغول بالمدرسة والعالم الجديد الذي ينتظرني. الطريق إلى المدرسة مزدحم بالتلاميذ، بعضهم في مثل طولي، آخرون أكبر، لكنهم يسيرون وحدهم دون أمهاتهم، وأنا ممسوك من معصمي بقبضة لا سبيل إلى الفكاك منها، كأنها حبل سري لحياة ما بعد الرحم. بين الحين والآخر أنظر في وجهها الباسم الهادئ، وجه أحمر يفيض بالبشر والأمل. أقول لها راجياً:

– اتركيني ... بعرف الطريق.

لم تلق بالاً لاقتراحي، ما زالت تحدثني عن فضائل المتعلمين على غَيرهم من البشر، وأن الله حباهم وأنزلهم منازل رفيعة في الجنة، وفي حياتهم الدنيا يهنئون بلقمتهم، ويلبسون ملابس جديدة، ويسكنون بيوتاً نظيفة.

وصلنا البوابة الحديدية الخضراء، قالت بلهجتها المشجعة وهي تمسد رأسي:

– هاذي مدرستك فيها بتتعلم تفك الخط، ولمن بتكبر بتصير معلم زي جارنا أبو عزمي.

أودعتني داخل البوابة الحديدية العالية وتركتني إلى مصيري المجهول، أخيراً انفلت الحبل السري، لكن شيئاً من الخوف انسرب إلى أعماقي، شيء ما يغريني بالعودة معها، كل ما يلزم لتنفيذ هذه المهمة قليل من البكاء في حضنها، فهي تنهزم أمام دموع ولدها الثاني الذي جاء على عطش الذكورة، لكني فضلت أن أخوض التجربة.

أول شيء فعلته وأنا في باحة المدرسة هو نظرة إلى السماء مع مرارة الاكتشاف أنها أعلى مما توقعت، لكن الأمل لم يخبو، فإلى الغرب تبدأ السماء الزرقاء بالهبوط تدريجياً، إنها تكاد تلامس قمم الجبال الغربية، ربما من هناك لا يحتاج المرء إلى أكثر من سلم خشبي لاعتلائها.

أتأمل الوجوه من حولي، كلهم حليقو الرؤوس مثلي ويلبسون بدلات الخاكي الرمادية ويحزمون على ظهورهم " خرايط " فيها خبز وماء.

كلهم من حارات بعيدة، لم أعرف أحداً منهم، معظم أقراني من أولاد الحوش والحارة ماتوا في موجة الحصبة، تقول جدتي عائشة أنني الوحيد من الحارة الذي نجا من الحصبة، وهذا يعني في عرفها أن حياة طويلة وشاقة بانتظاري، ولما سألتها أين ذهب أولاد حارتنا؟ قالت: " ذهبوا إلى الجنة وصاروا عصافير " .

وتخيلتهم وهم يخفقون كالطيور في جنة خضراء، وأنا في ساحة المدرسة الجرداء أمام حشد من التلاميذ أجهلهم ويجهلونني.

جالس وحدي على حجر في زاوية قصية من الساحة، محايد المشاعر فلا أنا بالخائف ولا بالمطمئن، الأخبار تصلني تباعاً ومعها يتنامى الخوف في داخلي، ثمة من يقول إن الأستاذ وليد يجلد الأولاد بالعصا على مؤخراتهم، وآخر يتمنى أن تكون قرعته في صف الأستاذ شاهر؛ لأنه لا يضرب الأولاد. ابتهلت إلى الله أن يكون نصيبي عند الأستاذ شاهر.

قرع الجرس، صوته رهيب وينطوي على وعيد، صوت كرهته من أول لحظة. وقفت في الطابور جامداً كتمثال، عيناي فقط تتحركان وأنفاسي تتصاعد بخفقان ينذر بالخوف، المعلمون خرجوا من غرفتهم واصطفوا على شرفة المدرسة مدججين بالعصي، ترى أي منهم الأستاذ وليد؟

دخلت الصف منصاعاً بشكل لا نهائي، محاذراً الخروج من الطابور، ابتكر لنفسي أفعالاً ترفع درجة امتثالي، جلست في أول مكان تيسر لي، وضعت الخريطة تحت الطاولة وعقدت أصابعي أمامي، عيناي مركزتان على بؤرة اللوح الأسود.

لحظات ودخل الأستاذ في يده العصا، رجل قصير وممتلئ، وجهه صارم لا يبشر بالخير، شيء ما ينذرني أنه ليس الأستاذ شاهر، ما زلت ابتهل إلى الله أن لا يكون الأستاذ وليد، لم يتحدث، راح يقطع الغرفة كالديدبان، أخفضت بصري نحو الأرض خشية أن تتلاقى نظراتنا، أحياناً أغافله واقتنص نظرة سارقة إلى عصاه المحايدة، إنها غصن بلح، رفيعة مستدقة من الأمام غليظة من عند مقبضها وفيها انحناء من منصفها.

اطمئن نفسي الملتاعة: " ربما تكون هذه العصا للأولاد العصاة الأكبر سناً " .

الصف هادئ، وحده قلبي الذي يهدر في الصمت يكاد ينخلع رعباً، توقف الأستاذ عن حركته البندولية وأدار عينيه الصقريتين ناحيتي، قلبي يحدثني أن شيئاً ما على وشك الحدوث، امتدت عصاه مشيرة نحوي، رأسها المستدق يكاد يلامس أرنبة أنفي.

الآن ثمة عالمان على طرفي نقيض تفصل بينهما عصا بطول ذراع تنتهي بقبضة صارمة هناك، وهنا عالم آخر ممتثل وضعيف ومنهار. في هذه اللحظة شعرت أن العالم من حولي يتلاشى دون أن يبقى فيه إلا أنا وهو والعصا.

– أنت.. اوقف.

كأن قوة ما انتشلتني، لكن كل شيء موشك على الانهيار.

– شو اسمك؟

أجبته معرقلاً بالخوف الرهيب.

– اسمك الكامل.

– أجبته كما ينبغي لتلميذ ترتعد فرائصه رعباً.

العصا تتحول نحو ضحية أخرى، لن انتظره حتى يعود إلي مرة ثانية، عيني على الباب المفتوح وبمجرد أن أدار ظهره وتحول إلى ضحيته التالية انطلقت بكامل عزيمة طفل هارب من حتفه.

قطعت المسافة من المدرسة إلى البيت جرياً دون أن التفت خلفي، قدماي الصغيرتان تخبان في التراب الناعم الخفيف، أجري بكامل طاقتي ظاناً أن يديه الطويلتين على وشك الإمساك بطوقي، أخيراً اقتربت من الحوش، رمت أمي غربال القمح من يديها وأخذتني في حضنها الدافئ، حينها فقط شعرت بالاطمئنان في ملاذي الأمين.

جاءت جدتي عائشة بطاسة من الماء البارد ومسحت على وجهي الملتهب من حرارة الخوف.

سألتني:

– مالك ليش راجع؟

– خفت من الأستاذ.

حاولت جدتي أن تطيب خاطري بكلماتها الرضية، أما أمي فبدت لي وكأنها أصيبت بطعنة في أملها، ومع ذلك جاهدت لبعض الوقت في تهدئة روعي. بعد ساعة عادت أمي من جديد إلى مواعظها، وفي اللحظة المناسبة قالت لي:

– يلا نعاود عالمدرسة.

فعدت إلى سلاحي الظافر من جديد فعدلت عن رأيها. ظلت أمي عدة أيام تغريني بأشياء جميلة وترشيني من تحويشتها بنقود لم أحلم بها من أجل أن أعدل عن قراري، إلا أن كل هذه المحاولات تبددت أمام عنادي.

كان أبي محايداً إزاء ما يحدث، ولم يظهر درجة القلق التي لأمي، ما زاد في قدرتي على العناد، حتى استسلما نهائياً أمام إصراري الجامح ونفوري اللامحدود من المدرسة، واقتنعا أنني لن أعيش مع الأستاذ وليد في مدرسة واحدة.

مشهور البطران– معلم/إذنا الخليل
mashhourbatran@hotmail.com